الفصل الأول

مشكلة الفشل

لقد عملت لعدة سنوات طبيباً نفسياً ، مع أناس فاشلين ، وكافحت معهم أثناء تلمسهم الطريق إلى حياة أكثر نجاحاً . وبينما كنت مشتركاً معهم قاسمتهم الآلام وسوء الحظ ، وحاربت طرائقهم المطابقة للمبادىء العقلية ، وكشفت من خلال هذا الكفاح عن حقيقة هامة : بصرف النظر عن عدد مرات الفشل التى منى بها الشخص فى ماضيه ، وبصرف النظر عن خلفيته وثقافته ولونه أو مستواه الاقتصادى . فانه « لا ينجح بوجه عام ما لم يستطع بطريقة ما أن يجرب النجاح أولا فى جانب هام من حياته » . فاذا ما أصاب أول نجاح يبنى عليه ، تصبح العوامل السالبة . والعوامل التى يؤكدها رجال علم النفس لا تعنى إلا القليل .

ولجأت بسبب هذه الملاحظة التى اكتسبتها خلال إحدى عشرة سنة قضيتها فى مساعدة الفتيات الجانحات بمدرسة إصلاحية(١) ، إلى المدارس العامة ، وأعتقد أن الطفل إذا استطاع النجاح فى المدرسة فانه سيقابل فرصة ممتازة للنجاح فى الحياة . وإذا فشل فى أية مرحلة من عمله التربوى – بالمدرسة الأولية أو الثانوية الصغرى أو الثانوية الكبرى أو الكلية – فان فرص نجاحه فى الحياة تنقص كثيراً .

سوف لا نستطيع بحال . من وجهة نظر الجماعة . تقديم الكثير لتصحيح المشكلات الخطيرة فى البيوت والعائلات ؛ وبالرغم من أن البيوت المفككة

---

(١) ارجع إلى كتاب Reality Therapy ، الفصلين الاول و الثالث .

سيكون لها دائماً تأثير سيء على الأطفال الذين نرسلهم إلى المدرسة ، فان المدارس يجب ألا تستسلم نتيجة لذلك ؛ ونحن كشعب نستطيع مع ذلك أن نتخلص ، بل يجب أن نتخلص من التميز العنصرى ، وأن نزيد من فرص العمالة ، وبخاصة العمالة ذات المعنى ، التى يشعر فيها العامل أنه يقوم بعمل جيد جدير بالاهتمام ، وذلك لأن التميز العنصرى وقلة فرص العمل حالياً ، تساعد بصورة ملحوظة على الفشل الذى نشاهده فى مجتمعنا ؛ ومع ذلك ، فحتى لو صححنا بالفعل نواحى النقص الخطيرة ، وإذا لم نفحص التربية ونبتدع طريقة لتخريج طلبة أكثر تربية ونجاحاً ، فان كثيراً مما نفعله فيما عدا هذا سيضيع هباء ، يجب أن نطور المدارس التى ينجح فيها التلاميذ ، لا فى ضواحينا الغنية وحسب ، بل فى جميع أنحاء مدننا ، من مناطق الطبقة الوسطى الراقية إلى منطقة الفقر المدقع بالمدينة المركزية(١) إنها مسئولية كل طفل كفرد أن يعمل حتى ينجح فى الحياة ، وأن يرتفع فوق العقبات المحيطة به ؛ ومسئولية المجتمع بالمثل أن يقدم نظاماً مدرسياً لا يكون النجاح فيه ممكناً فقط ، بل مرجحا إذ أن شطراً كبيراً جداً من نظامنا التربوى الراهن يؤكد الفشل « فما لم نستطع توفير المدارس التى يمكن أن ينجح فيها أطفالنا باستخدام قدراتهم استخداماً معقولا ، فاننا سوف لا نفعل إلا القليل لحل المشكلات الكبرى فى بلادنا » وستقابلنا اضطرابات اجتماعية ، وعدد أكبر من الناس الذين يستوجب الأمر حبسهم فى السجون والمستشفيات العقلية ، وعدد أكبر من الناس الذين يحتاجون إلى مشرفين اجتماعيين للعناية بحياتهم ، لأنهم يشعرون بعجزهم عن النجاح فى هذا المجتمع ، ولا يرغبون بعد فى القيام بمحاولة أخرى ، والأهمية الحاسمة للنظام ، التى يحملها ذهنى ، هى التى جعلتنى أنتقل من ممارسة الطب النفسى التقليدى ، ولكن المحدود ، فى السجون والمستشفيات العقلية والعيادات ، إلى العمل مع الأطفال والمدرسين بالمدارس لأرى ما إذا كانت

(١) بالرغم من ممارستى العمل بمدارس الريف ، فاننى متأكد من أن كثيراً منها بحاجة إلى نفس البرنامج الذى أوصى به لمدارس المدن والضواحى .

مفاهيم العلاج الواقعى ، وبخاصة المشاركة والمسئولية المطبقة بالمدارس العامة ، يمكن استخدامها هناك كما تستخدم بمدارس الإصلاحيات والمستشفيات العقلية .

ليس أدرى بشكلات الأطفال الفاشلين أكثر من أولئك الذين يعملون بالمدارس ، فكل مدرس ومدير تقريباً ، ممن تحدثت إليهم فى السنوات العديدة الماضية كان مضطرباً متحيراً ، وكانوا فى كثير من الأحيان قانطين مكتئبين للأعداد المتزايدة من الأطفال الذين يبدون التمرد على العملية المدرسية تمرداً تاماً . فهم ثائرون ، لا يقرأون ولا يستجيبون لحافز ، وينسحبون غير مبالين ، ويبدو أن تربيتهم فى حكم المحال ،وقد حاول أولئك الذين يعملون بالمدارس ، ولا يزالون يحاولون بطرق جديدة كثيرة . وهم يواجهون بهؤلاء الأطفال الذين يسببون المشكلات ، ويتوقعون أننى أستطيع ، بما لى من خبرة فى العمل مع الأطفال الثائرين غير المطيعين ، المنطوين غير المبالين ، أن أسهم فى بعض الإجراءات الفعالة للمدارس . ولما كنت قادماً من نظام خارج المدرسة ، فأظننى أستطيع أن أرى بعض المشكلات بأوضح مما يراها الأقرب إليها منى ؛ ولعل مساعدتى الكبرى حتى هذا الوقت هى أننى أرى أن « مشكلة المدارس الكبرى مشكلة فشل » ولذلك يجب الكشف عن طرق تهيىء النجاح لعدد أكبر من الأطفال . ولكى نكشف عن هذه الطرق ، يجب أن نفحص أسباب فشل الأطفال ، وأن نطور فلسفة تربوية تؤدى إلى جو يكون فيه النجاح أكثر احتمالا ، و « يجب أن ننفذ هذه الفلسفة فى حجرة الدراسة ، حيث تكون ذات تأثير » ، فلا نقتصر وحسب على تقديم الخدمة الشفوية لها فى معاهد التربية والكتب والمؤتمرات .

وبصرف النظر عن أسباب الفشل ، فان « أية توصيات بالتغيير يجب أن تجرى فى الإطار القائم للمدارس » ، أى أنه من غير الملائم أن نوصى بأن يكون الحل « الوحيد » أن نستأجر عدداً أكبر من الناس ، أو أن نبنى مدارس أكثر

ملاءمة ، أو نضاعف عدد المدرسين ، ونستأجر عدداً أكبر من الخبراء . أو أن نفعل أى شيء يزيد كثيراً من ميزانية المدرسة ، ونواصل إيجاد فصول واسعة وقلة من الإخصائيين بالمدارس، ولا أريد القول بأن زيادة الموظفين ، والمدرسين الأكثر تدريباً ، وتقليل حجم الفصول ، وغير ذلك من المميزات التربوية الأخرى لا تفيد ، ولكن الأمر الذى أوصى به فى هذا الكتاب يمكن أن يطبق على الأحوال الجارية فى المدارس ، الأحوال التى أعتقد أنه يمكن إصلاحها كثيراً بنفقات قليلة .

سرعان ما وجدت أن أية محاولة تقوم بها المدارس لاستخدام إخصائيين للعمل مع الأطفال فرادى ، أو حتى مع مجموعات صغيرة من الأطفال ، لا تقلل من حجم مشكلة الفشل التى تواجهها المدارس ؛ وحتى لو كان لكل مدرسة طبيبها النفسانى الخاص ، أو إذا عمل فى نطاق الإطار التقليدى الذى ينطوى على رؤية الأطفال خارج الفصل، أفراداً أو مجموعات صغيرة ، فان شيئاً لن يتغير .

إن طريقة العلاج النفسى الاجتماعى التقليدية ، طريقة عقيمة ، لافتراضها أن المشكلات المدرسية فى معظمها انعكاس كلى لمشكلات الفرد الشخصية ، وبيئة البيت المتواضعة ، والفقر ، والتمييز العنصرى . ويبدو لى العكس ، كما يبدو لمعظم المربين الذين أعمل معهم . وذلك أنه بالرغم من سوء أحوال البيئة الخارجية بالنسبة لكثير من الأطفال « هناك عوامل متأصلة فى النظام التربوى نفسه ، تسبب كثيراً من المشكلات المدرسية ، بل وتبرز المشكلات التى يأتى بها الطفل إلى المدرسة » .

كانت المدارس تتوقع من طلب معونتى أن أتبع فى حل المشكلات ، الطريقة التقليدية المستخدمة اليوم فى كل ناحية من نواحى مجتمعنا ، وهذه الطريقة هى : لا تبحث فى الدور الذى يقوم به النظام فى إيجاد الصعوبات ، ولكن بدلا من هذا ، اعزل تلك المتاعب الناشئة من النظام وعالجها على يد

إخصائيين ، فالعزل والمعالجة بواسطة إخصائيين – وهى الفكرة التى تقود معظم برامج إصلاح الأحداث عقلياً وصحياً فى الولايات المتحدة فى الوقت الحاضر – قد تسببت فى تدخلات خطيرة فى المدارس ؛ والفكرة خاطئة إلى حد ما فيما يتصل بالأحداث المذنبين وذوى الأمراض العقلية ، ولكنها سواء كانت صائبة أو خاطئة . فإنها تحدث فارقا ضئيلا عند الرجل العادى أو فى البلاد ككل ، أما بالنسبة للمدارس التى تكون مشكلاتها هى التقليل من شأن مشكلات الصحة العقلية أو إصلاح الأحداث بالطريقة المباشرة فيما يتعلق بالأمة وأعداد الناس الذين تضمهم ؛ فان فكرة العزل والعلاج بواسطة إخصائيين تسبب كارثة ، والأفضل من اتباع الإجراء التقليدى غير الوافى الذى تستخدمه فى كثير جداً من الحالات استخداماً غير ناجح مع المسجونين وذوى الأمراض العقلية ، أن تلزم بوضع الأطفال ذوى المشكلات التربوية فى مدارس غير متجانسة[1] ، وفى حجرات دراسية غير متجانسة ، مع استثناءات قليلة ، فيجب أن نبحث عن وسائل ، بل نستطيع مساعدتهم فى الحصول على عدد كاف من المدارس النظامية والفصول النظامية حتى لايستلزم الأمر نقلهم منها إلى العلاج الفردى أو إلى مجموعة ، بواسطة إخصائيين ، ويجب على الاخصائيين فى المدارس – المستشارين – ورجال علم النفس والمثقفين العلاجيين – مساعدة المعلمة فى حجرة الدراسة للتغلب على المشكلات التى لديها ، من الناحيتين . التأديبية والتربوية ، ويجب أن يبحثوا عن الطرق التى يمكن بها تحسين التربية فى حجرة الدراسة ، وعليهم أن يستخدموا أفكارهم فى الفصول المألوفة « بالتعاون » مع مدرسى الفصل ، ويمكن نقل الأطفال فى مناسبة ما لمساعدة خاصة ، ولكن يجب توجيه هذه المساعدة إلى أداء أفضل فى حجرة الدراسة غير المتجانسة .

---

(١) المدارس غير المتجانسة هى التى تظل بداخلها المشكلات السلوكية والتربوية ، ولا تنفصل عنها لكى ترسل إلى مكان آخر .

وبالرغم من سعة انتشار الفشل التربوى فى كل الجماعات ، فهو موجود بنسب وبائية فى المناطق الفقيرة المجاورة لأية مدينة ، وتوحى خبرتى فى المدينة المركزية (فى لوس أنجلس) أن خمسة وسبعين فى المائة من الأطفال لا يحصلون على التربية الأولية الكافية ، ومعنى هذا أن ثلاثة أطفال من كل أربعة ممن يتركون المدرسة الأولية لا يحصلون على مستوى مهارات الصف السادس فى القراءة والحساب ، وسوف لا ينمى هؤلاء الأطفال هذه المهارات فى المدرسة الثانوية .

وفضلا عن ذلك سيتزايد عددهم كلما صعب العمل وأصبح أقل انطباقا على القدرات الشخصية ، أما فيما يتصل بالأغراض العملية ، فان التربية فى المدينة المركزية تعد فاشلة ، فهى تنتج آلافا من الصغار منقطعين عن كل شىء إلا عن أحقر الأعمال[1] .

إن الطريقة الوحيدة تقريباً للنجاح ، والمعمول بها فى أمريكا اليوم ، هىء البدء بالتربية السليمة المصدق عليها بشهادة مدرسية قانونية ؛ وحتى الشهادة غير المدرسية (وهى شهادة يحصل عليها بواسطة الحضور المنتظم والسلوك الحميد ، وإن كان حاملها يستطيع القراءه والكتابة بشق النفس) أفضل كثيراً من لاشىء ، ومع ذلك فان عدداً قليلا من الطلبة يمكنهم إنهاء فترة دراستهم بعناية باعتبارها علامتهم الكبرى الدالة على النجاح ، ففى المدينة المركزية فقط أقلية ضئيلة تحمل شهادات مدرسية ، أما أولئك الذين يفشلون فيمثلون حشداً من الناس تعمر بهم سجوننا ومستشفياتنا العقلية ، وسجلات أعمال الخير ... أناس يعيشون حياتهم فى شقاء وفشل ، ووسيلتهم الوحيدة إلى النجاح نوع من التربية لم يعد بعد فى متناولهم .. إن هؤلاء الفاشلين تربوياً الذين قلما

---

(١) بالرغم من أن التوظف ليس الهدف الوحيد من التربية (ربما كان التشديد عليه فى الحقيقة غير متناسب إلى حد بعيد مع قيمته المطلقة) فبدون وجود فرصة العمل فى وظيفة ذات نفع ، يصبح مايتحقق من منافع أخرى عن طريق التربية قليلا .

يصلحهم القائمون على الخدمة الاجتماعية أو رجال علم النفس أو الأطباء النفسانيون أو السجون ، أو المستشفيات العقلية ، يشكلون عبئاً متزايداً على كاهل البقية الباقية من المجتمع ، وكثيرون ممن يعيشون حياتهم ، إذا ما اقتنعوا بفشلهم ، يعيشون فى عزلة ، أو كما نراهم أخيراً جداً ، فى ثورة أحيانا ضد النظام الذى لم يهيىء لهم فرصة للنجاح من وجهة نظرهم .

إننا لا نستطيع ألبتة أن ننجح فى إصلاح الناس، بدون أن نشركهم فى المسئولية منذ الطفولة فى نظام تربوى يستطيعون فى ظله أن « ينجحوا النجاح الكافى» فى أداء عملهم فى مجتمعنا ؛ وإذا كان علينا أن نتخلص من الأحياء الفقيرة السوداء ، ومن التمييز العنصرى وعدم تكافؤ الفرص، فيجب أن يكون لدينا شباب حاصل على شهادات دراسية معترف بها ، فحينئذ يستطيع الخروج إلى مجتمع فيه فرصة أكبر من أى وقت آخر ، للناس من كافة الأجناس ، لكى ينجحوا « إذا كان لديهم أوراق اعتماد تربوية » . ونحن نرى فى كل مكان بجنوب كاليفورنيا ، الزنوج والمكسيكيين الأمريكيين فى وظائف كانت ترفض طلباتهم المقدمة لشغلها فى الماضى ؛ ولأول مرة (فى سنة ١٩٦٧) سافرت على ثلاثة خطوط جوية كبرى ، فرأيت مضيفات من الزنوج ، ولست أدعى أن هذه الملاحظة ذات دلالة شاملة ، ولكنها ذات دلالة على النجاح فى وظيفة ظل يسيطر عليها التمييز العنصرى زمناً طويلا جداً .

وبالرغم من أن التطبيق التربوى القديم قد يكون ناقصا بنفس الصورة تقريباً، التى تجدها فى مختلف أنحاء الجيرة ، فان أسوأ أثر له يصيب الأطفال الذين ينتسبون إلى بيوت فقيرة ... إن بيان « المساواة فى فرص التربية » الذى يطلق عليه عادة « بيان كولمان » يدل على أن « التحسينات فى نوع المدرسة هى التى تحدث معظم الاختلاف فى التحصيل بالنسبة لمعظم الأطفال المحرومين».

وحيثما يأتى الأطفال من مواطن يعد الفشل فيها جزءاً من البيت أو البيئة المجاورة، فان نقص التربية لا يؤدى إلى حفز أو تثبيط ، وبدون الحوافز ،

أو الدخول فى معركة ضد التربية لايرون فيها أى معنى ، يفشلون فى المدرسة ويحبسون أنفسهم عادة فى الفشل طوال حياتهم ، أما فى المناطق المجاورة الأكثر ثراء ، حيث البيوت ناجحة ، والبيئة مندفعة بقوة نحو النجاح ، يؤدى نقص التربية إلى الفشل فى أحيان كثيرة جداً : ومعظم الأطفال يعرفون التلاعب بالاختبار والتذكر ، والألعاب التى لا تعتمد على تفكير ، وهى كافية للحصول على شهادة قانونية ، أى بطاقة للوصول إلى فرصة فى الحياة ، ومع ذلك فان كثيرين لايحصلون عليها ، وهؤلاء يمثلون مشكلات خطيرة فى ضواحى المدينة ، ومعظم المربين الرقيقى المشاعر فى الضواحى غير راضين عما يجرى فى مدارسهم .

وبالرغم من وجود الشيء الكثير الذى يجب أن نعرفه عن تحسين التربية ، فهنا بعض أفكار متاحة ولكنها غير مستعملة حتى الآن . ويمكن رفع مستوى التربية بالقدر الذى يكفى لخفض حالات الفشل عن طريق استثمار ضئيل بالقياس إلى جملة الطرق البيئية ؛ ومع ذلك فنحن نجر أقدامنا فى بطء ، لأن بعض التحسينات الأساسية التى يجب تنفيذها « تتعارض مع التقاليد » ، وليس لدينا اليوم خيار إلا أن يحدث هذا الختام . وأول شيء يجب أن نبحثه هو نواحى النقص التى تعتور التربية نفسها والتى يترتب عليها الفشل فى المدرسة ثم نضع دراسة لتصحيحها . فاذا لم نستطع هذا نكون قد قطعنا طريق النجاة الأكبر وربما الأوحد ، من تردينا الحالى فى الاختلال الاجتماعى المتزايد .